سلسلة الرسائل العلمية

جُهودُ الإمام ابن أَبي زيد القَيرواني

في خدمة المذهب المالكي



بقلم: الدكتور أحمد الرزاقي

منشورات مركز الإمام مالك الإلكتروني



جهود الإمام ابن أبي زيد القيرواني (ت: ٣٨٦ هـ)

في خدمة المذهب المالكي

إعداد

الدكتور أحمد الرزاقي



ـ **الكتاب** : جهود الإمام ابن أبي زيد القيرواني في خدمة المذهب المالكي

ـ **إعداد** : د أحمد الرزاقي

ـ **إشراف وإخراج** : مركز الإمام مالك الإلكتروني.

ـ **الطبعة** : الأولى ـ ٢٠٢٠.



بسم الله ذي الجلال والإكرام والصلاة والسلام على النبي المختار وعلى آله وصحبه الأطهار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

مقدمة

يعد مذهب الإمام مالك بن أنس من أجود المذاهب فقهًا وأحسنها فهمًا وإدراكًا وأكثرها اتباعًا للدليل الشرعي المعتبر، وذلك بما تأسس عليه من كثرة الأصول، والمزاوجة بين المنقول والمعقول، فكان من أكثر المذاهب استيعابًا للواقع حالاً ومآلاً، ولا تكاد تجد عالمًا مالكيًا مشهوراً مبتدعًا في الاعتقاد أو منحرفًا عن السنة أو مخالفًا لما أجمعت عليه الأمة سواء في المعتقدات أو العبادات أو العادات.

والمذهب المالكي من أعظم وأجل المذاهب الإسلامية، كما قال الإمام ابن خلدون: «وأمّا أهل الحجاز فكان إمامهم مالك ابن أنس الأصبحيّ؛ إمام دار الهجرة -رحمه الله تعالى- واختصّ بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره؛ وهو عمل أهل المدينة؛ لأنّه رأى أنّهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة، لدينهم واقتدائهم»(١).

(١) المقدمة: ٥٦٤.

فكان المذهب المالكي من الركائز الأساسية التي أسهمت إسهاماً كبيراً في ترشيد فهم الكتاب والسنة، وبناء منهج خاص لتجنيب الأمة الأفكار الشاذة، ووقايتها من سيئ أسقام التنطع والغلو والتطرف.

والحق أن لكل مذهب علماءه الذين يقيمون أصوله؛ ويبنون أُسُسَ قواعده؛ ويحافظون على أصوله وكلياته، ويقعدون مسائله وفتاواه، ولا يألون جهداً في الترجمة لرجاله وأعلامه، ومن الأئمة الأعلام المالكيين الذين أثروا المكتبة الأصولية والفقهية نجد بعد الجيل المؤسس، ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦ هـ)، وأبا بكر الباقلاني المالكي (٤٠٣ هـ)، والقاضي عبد الوهاب البغدادي (٤٢٢هـ)، وأبا الوليد الباجي (٤٧٤ هـ)، وغيرهم كثير.

ويعد الإمام الجليل العلامة النحرير الجهبيد ابن أبي زيد القيرواني من أهم الأعلام والأئمة الأخيار في المذهب المالكي، إذ هو أحد أعمدته الذين خدموا المذهب خدمة جليلة وكرسوا حياتهم للدب عنه بكل استماتة وعلمية، وناضلوا بكل ما أتوا من قوة الدليل والحجة والبيان خدمة للمذهب وتثبيتاً لأركانه، وتعريفاً به وتحقيقاً لتراثه، وتأصيلاً لمسائله وفروعه.

في هذا المقال أتناول مسألتين أبين من خلالهما بعض جهوده في خدمة المذهب المالكي المسألة الأولى؛ بعنوان: جهوده في خدمة المذهب المالكي تأليفاً وتعريفاً، المسألة الثانية؛ بعنوان: جهوده في خدمة المذهب المالكي تحقيقاً وتأصيلاً.

المسألة الأولى: جهوده في خدمة المذهب المالكي تأليفاً وتعريفًا

لقد احتفى علماء المالكية عامة وفقهاؤهم خاصــة بمؤلفات ابن أبي زيد القيرواني احتفاءً كبيراً لأهميتها في التعريف بالمذهب، وجودة تصــنيفها وخدمتها الجليلة المباشــرة التي قدمها للمذهب المالكي فقهًا وأصولاً وعقيدةً.

أولاً: أهم مؤلفاته في خدمة المذهب المالكي

ومن بين أهم مؤلفـات كتـاب "النوادر والزيـادات" ألفـه في مـائـة جزء، وهو مشــهور متـداول(٢)، وكتاب: "اختصــار المدونة والمختلطة"(٣) وهو معرف أيضــًا، وكتاب: "تهديب العتبية"، وكتاب: "الاقتداء بأهل المدينة"، وكتاب: "الدب عن مذهب مالك"، نهيك عن مؤلفاته في العقيدة وعلم الكلام والسـلوك والتربية ككتاب: "الرد عن القدرية"؛ وكتـاب: "المضــمون من الرزق" وكتـاب: "المعرفـة واليقين والتوكـل"، كمـا ألف في: "إعجاز القرآن"(٤).

ومن أهم مؤلفاته المحتفى بها "الرسـالة في الفقه المالكي"، وهي بمثابة مدونة مختصـرة جدا للفقه المالكي، ومبسـطة غاية التبسيـط، حتى ذكر صـاحبها أنها مؤلف ابتدائي لتعليم الصــغار، أما باقي مؤلفاته فهي في التأصــيل والاســتدلال والتقعيد للفقه المالكي، والدب عن المذهب، وغيرها مما ذُكِر آنفـًا.

ولعـل ممـا جعل الاحتفاء بمؤلفاته جليلاً، والعناية بها كبيرةً؛ من طرف أعلام المذهب المالكي وغيره(٥)، هو مكانتها العلمية ودقة منهجها وجودة تصـنيفها؛ ومنزلة مؤلفها ابن

(٢) تحقيق محمد الأمين بوخبزة، دار الغرب الإسلامي في ١٥ مجلدا.
(٣) تراجم موجزة للأعلام، نشر وزارة الأوقاف المصرية: ١/ ٤٥١.
(٤) يُنظر: مسالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة، للعلامة أحمد بن الصديق الغماري: ٧.
(٥) من الأعلام الذين اهتموا بابن أبي زيد العلامة أحمد بن الصــديق الغماري الأزهري الشـافعي في كتاب سماه "مســالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة.

أبي زيد القيرواني؛ الملقب بمالك الصغير؛ لمكانته العلمية، وارتباطه المنهجي بالمذهب المالكي، وسمعة أخلاقه النبيلة، وعقيدته السليمة، ومجابهته لأهل البدع ومناظرته لهم، وما نشر الله له من القبُول بين تلاميذه وأقرانه، وعموم المالكية في المغرب والمشرق.

ثانيا: منهجه في التأليف خدمةً للمذهب

من المعلوم أن ابن أبي زيد سلك منهج السلف الصالح، عقيدةً وفقهًا وأخلاقًا حيث اشتغل بمنهج التأصيل والتدقيق وعزو الكلام إلى أصحابه مسنداً مضبوطًا من غير تقول ولا اضطراب، سواء جمع أو شرح أو اختصر أو لخص، أو حاجَّ أو ناظر في دبه عن السنة والعقيدة أو عن الفقه والمذهب المالكي، وهذا واضح في جل مؤلفاته الآنفة الذكر.

قال رحمه الله في معرض بيان منهجه في كتابه "اختصار المدونة والمختلطة": «ولقد اختصرتها كتابًا كتابًا، وبابًا بابًا، وربما قدمت فرعًا إلى أصله، وأخرت شكلاً إلى شكله، وإذا التقت في المعنى مواضع كلها شبيهة به ألحقتها بأقربها به شبهًا، ونبهت على موضعه في بقيتها، وربما أثرت تكرار ذلك كله تماما للمعنى الذي جرى ذلك فيه منها، وقد حذفت السؤال وإسناد ما ذكرت من الآثار، وكثيرا من الحجاج والتكرار»(٦) وبهذا يوضح الإمام طريقة تعامله مع المدونة والمختلطة بكل أمانة وعلمية.

أما عن الأسلوب الذي اعتمده فقال: «واستوعبت المسائل باختصار اللفظ في طلب المعنى، وجعلت مساق اللفظ لعبد الرحمن بن القاسم، وإن كان كله قول مالك؛ فمنه ما سمعه منه، ومنه ما قاسه على أصوله، إلا ما بيَّن أنه خالفه فيه، أو اختياره من أحد قوليه»(٧).

(٦) اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١١- ١٢.
(٧) اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١١- ١٢.

كما بَيَّنَ منهج تصرفه في مضمونها؛ حيث قال: «وقد بذلت الجهد في تقليل الكثير، وتقريب البعيد، والعبارة عن المعنى الجلي والخفي وجمع ما افترق من المعاني المتشاكلة»(٨).

وهكذا بين منهج اختصاره للمدونة بما اعتمده والتزمه من طريقة وأسلوب في اختصارها؛ ببناء هذا الكتاب الجامع المستوعب للفقه المالكي الملخص أمهاته، بأبلغ لفظ وأيسر أسلوب وأوضح صورة، من غير إطالة مملة ولا مجازفة مخلة.

أما عن عنايته الفائقة بالتأصيل وربط المسائل بدليلها من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو ما اختاره من أصول مذهب مالك من الانتصار لأصوله، فقد كان رائداً في ذلك وموفق بتوقيف الله إلى حدٍ كبيرٍ.

ومن ذلك قوله: «كل ما ابتدأت في أوائل الفصول والأبواب من ذكر أصل من السنة أو الكتاب، أو أقاويل السلف، أو حجة قياس فأكثره من غيرها، وأقله منها، ورأيت أن التلويح بذكر الأصول المجملة عون في فهم فروعها المشكلة»(٩). وهكذا بين رحمه الله كيف يؤصل لفروع الفقه ومسائل المدونة، حيث ذكر أنه اعتمد في الاستشهاد والتأصيل لأكثرها من خارجها.

فيؤصل في غرة الفصول والأبواب قبل ذكر المسائل؛ فمثلاً في المدخل الذي جعله بعنوان "جامع في فضيلة العلم وأهله وثوابه وآدابه وفريضة القيام به(١٠)، أورد مجموعة من

(٨) اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١٢.
(٩) اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١٢.
(١٠) يُنظر: اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١٧ إلى ٣٢.

الآيات الدالة على ذلك، والأحاديث الحاثة عليه، وأقوال الإمام مالك وتلاميذه في أهميته، وحرص السلف عليه.

وكذلك ومثال في باقي الأبواب والكتب، حيث يسوق جملة من الأدلة في القرآن والسنة أو القياس أو العمل من قول مالك أو غيره حسب ما يقتضيه الاستشهاد للمسائل.

أما عن أخلاقه وتواضعه وصدق توجهه إلى الله فظاهرة لا يخفى عن كل ذي بصيرة؛ فضلا عن صاحب الفراسة، ومن ذلك نورد رشفًا من بحر تجليات أخلاقه النبيلة حيث قال بعد تقرير منهجه في اختصار المدونة والمختلطة: «وقد بذلت الجهد في تقليل الكثير، وتقريب البعيد (..)غير متعمد لزلة ولا متبرئ من غفلة، ولا راغب عن نصيحة فعل من أنصف لله من نفسه في نفاذ رؤيته وصحة طويته»(١١)، وهذه عبارات تدل على رواء الأخلاقي وتواضعه الجم وصدق طويته.

ثالثا: منهجه في الرسالة لتقريب مسائل الفقه المالكي

والأمر الذي نستشفه من خلال(١٢) الرسالة على وجه الخصوص، هو أن الإمام ابن أبي زيد خدم المذهب بتقريبه للناشئة والمبتدئين، على أحسن وجه، حيث جرده من السند والأدلة دون إخلال بمضمونه، أو قصور في مسائله، ليسهل ترسيخه لدى المتلقين الناشئين، وتتفتق أذهان الصبيان على حفظ مسائله.

قال في مقدمة الرسالة موجهًا الكلام لمن سأله تأليف الكتاب، «فقد سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب،

(١١) اختصار المدونة والمختلطة: ١/ ١٢.
(١٢) يُنظر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٤.

وتعلمه الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك، والسنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الأدب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب مالك بن أنس»(١٣).

وتعتبر هذه الكلمات ملخصاً موجزاً لمنهج الإمام ابن أبي زيد في كتاب الرسالة خاصة، والذي سيكون هو عمدته في تدريسه وتأليفه ونصرته لأصول مذهب الإمام مالك وعقيدته كما هو ظاهر في جل مؤلفاته.

فكتابه الرسالة في الفقه المالكي مثلا؛ صدره بباب العقيدة، ثم أبواب العبادات بدءً بالطهارة، ثم أبواب المعاملات مازجاً ذلك كله بالتأكيد على حسن الاقتداء، والأخلاق الطيبة، والآداب الحسنة، ولم يفرد باباً للتصوف على غرار ما فعل بعض من جاء بعده، وإن كان لم يغفل عن ذلك في إشارات طفيفة أثناء الكتاب، خاصة تأكيده على وجوب ربط العلم بالعمل، والتخلق بمقتضاه.

وهذا المزج المتمثل في التأكيد على أهمية ربط العلم بالعمل والتخلق بمقتضى العلم يعتبر من سيماء المنهج عند الإمام ابن أبي زيد وصميمه، أضف إلى ذلك المنهج البارز المتمثل في البدء بباب العقيدة؛ لأهميته في المجال التربوي، ولوجوب التأكيد عليه قبل باب الفقه، إذ العقيدة الصحيحة رأس الأمر كله، وأساس صحة الأعمال كلها، وهي أولى الأولويات في صحة التصورات والمنطلقات، لذلك أوجب المنهجُ البدء بباب العقيدة.

ولعل ذلك لما عرفه القرن الرابع الهجري من البدع والعقائد المنحرفة، فأراد بذلك أن يرسخ ما صح من العقائد عند السلف، وأن يكون شاملا لكل ما يجب على المسلم في دينه ودنياه، كما يمكن القول بأنه منهج استلهمه من سيرورة السيرة النبوية، التي ركز فيه

(١٣) مقدمة "الرسالة" لابن أبي زيد.

الرسول عليه الصلاة والسلام على التوحيد ابتداءً، وترسيخ العقيدة الصحيحة قبل كل شيء؛ تخلية وتحلية.

"فمن حيث المضمون بسط فيها المؤلف مسائل التوحيد والعقيدة على طريقة السلف الصالح؛ من الصحابة وتابعيهم من أهل السنة والجماعة، التي تعتمد النصوص المحكمة من القرآن والحديث، وتتجنب الخوض في القضايا الشائكة، والمسائل الصعبة التي تكون مثار استدلال منطقي، اعتمد العلماء التعرض له في مباحث علم الكلام"(١٤).

ولعل متمسَّكه في منهج اختياره التفويضي هذا في العقيدة قاعدة صاغها بعده الإمام الشاطبي بقوله: "فَمَا يُؤَمِّنُنَا مِنْ سُؤَالِ اللهِ تَعَالَى لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مِنْ أَيْنَ فَهِمْتُمْ عَنِّي أَنِّي قَصَدْتُ التَّجْنِيسَ الْفُلَانِيَّ بِمَا أَنْزَلْتُ مِنْ قَوْلِي"(١٥)، وكأن التفويض هو الأسلم له عند الله، خاصة وأن الكتاب متوجه به إلى المبتدئين والحديث عهد بالعلم والتعلم، فيكون التفويض أقرب للفطرة من الخوض في التأويل الذي قد يكون خاصًا بالعلماء عند المناظرة، ودفع آراء الزنادقة وأهواء المجسمة.

ثم بعد ذلك تطرق الى أبواب العبادات والمعاملات: "بسط فيها أهم مسائل الفقه وأحكامه، وفروعه وجزئياته، في العبادات والمعاملات والفرائض والحدود والديات وغيرها تبسيطًا وتحقيقًا يمكن اعتماده بكل بساطة وسهولة"(١٦).

والجدير بالذكر أن ابن أبي زيد سلك في الرسالة خاصة، استأثر عدم ذكر الأدلة الجزئية على كل مسألة إلا قليلا، وذلك أنها "احتوت على أربعة آلاف مسألة وأربعة مائة

(١٤) من تقديم الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: ٦.
(١٥) الموافقات: ٤/ ٢٦٣.
(١٦) الرسالة في الفقه المالكي: ٦

حديث"(١٧)، إلا أن مسائلها كلها مستدل عليها بأدلة أصول مذهب الإمام مالك بن انس، وإنما استحسن ذلك فيما يبدو لغرض تربوي ومنهج تعليمي إذ كما قلنا قبل قليل هي رسالة متوجهة بها أساساً لتعليم المبتدئين أحكام العقيدة والفقه المالكي، تدريبا لهم في بادي الأمر عليه.

كما فعل الإمام مالك على سبيل المثال في الموطأ حيث ذكر مجموعة من الأحاديث مرسلة وبلاغات، فجردة من أدلتها كما جردت بعض الأحاديث من سندها، والتي وصلها الإمام ابن عبد البر كلها إلا ثلاثة وصلها بعده الإمام ابن الصلاح، وهي على كل حال طريقة للتبسيط والتيسير قصد التعلم والتدريس.

وممن قام بالاستدلال لمسائل رسالة ابن أبي زيد على سبيل المثال لا الحصر العلامة الجليل أحمد بن الصديق الغماري في كتاب سماه مسالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة، وإلا فإن جل شراح رسالة ابن أبي زيد أصلوا مسائلها الفقهية بأدلتها من أصول الفقه في المذهب المالكي.

فكان هذا المنهج الذي سطره في أول مؤلف له، خلاصة ما جاء بعده من مؤلفات في أصول المذهب المالكي، والذب عنه، ونصرة أرائه ومصادره، فعمل على شرح هذا المنهج والاستدلال له والاجتهاد به، كما عمل على نشره بين الناس، وخاصة بين تلاميذه وأقرانه.

---

(١٧) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٥.

فكانت عقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة سنية صافية؛ غير مشوبة ولا مكدرة بالمذاهب الكلامية، بل كان مستمسكاً بمنهج السلف دون زيادة أو نقصان كما كان عند الصحابة والتابعين والأئمة المقتدى بهم.

كما استمسك بالمذهب المالكي في الفقه وأصوله منتصرا له بالحجة والبرهان، وبيان أوجه رجحان الدليل، خاصة في كتاب "النوادر والزيادات" الذي بسط فيه أصول الفقه المقارن على المذاهب الفقهية المشهورة، فانتصار للمذهب بالحجة المعتبرة الراجحة في كثير من المسائل.

قال ابن خلدون "جمع بن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذاهب وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب"(١٨).

والجدير بالذكر هاهنا أن ابن أبي زيد ألف كتابين في هذا الخصوص هما "الذب عن المذهب"، و"الاقتداء بأهل المدينة"(١٩)، فاستفرغ منهجه في نصرة المذهب في هذه المؤلفات وغيرها، كان إذن هذا بعض ملامح منهج ابن أبي زيد في إغناء المذهب ونصرته بالتأليف والتلخيص والشرح والتأصيل.

---

(١٨) المقدمة ابن خلدون: ٤٥٩

(١٩) ينظر كتاب من أعلام المذهب المالكي فصل مؤلفات ابن أبي زيد

رابعا: طريقته في التدريس تعريفا بالمذهب

جاء في مقدمة الرسالة في تتمة ما قاله قبل، لمن سأله تأليف الرسالة قوله: "لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق الى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه"(٢٠)

ومن هنا نستشف طريقته ومنهجه في تدريس الطلاب: وذلك بتقديم حفظ القرآن وتدريس علومه، ثم ما يجب أن تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، من أمور العقيدة، التي تعطي للطالب دفعة مهمة نحو الإلحاح في الطلب ومواصلة المسيرة في تحصيل العلوم، من جهة الإخلاص، ثم ترسيخ مباحث العقيدة الصحيحة في عقل الطالب قبل أن تطرقه الفرق الزائغة المنحرفة بشبهاتها وضلالها. ثم بعد ذلك يتم دراسة الفقه بمباحثه المعروفة من عبادات ومعاملات على أصول مذهب أهل المدينة، في الفقه المالكي.

حتى إذا أتقن الطالب هذه العلوم واستمسك بأصولها حفظاً لمتونها واستيعاباً لفروع المذهب المالكي، انتقل بعد ذلك، إلى دراسة أصول الفقه وقواعده والمصادر المعتمدة، وما يعتمد في الاستنباط والاستدلال، وهي مرحلة لا تنفك عن دراسة واستيعاب الفقه المقارن، والترجيح بين أصول المذاهب المختلفة.

وهو أمر يجعل الطالب في قوة عالية لنصرة الدليل والدفاع عنه، وهو ما ورَّثَهُ ابن أبي زيد القيرواني لجُلِّ تلامذته بأسلوب علمي هادئ، فكان له الفضل الكبير في خدمة المذهب وتوسيع قواعده الاجتهادية.

---

(٢٠) الرسالة لابن أبي زيد.

كما أن ابن أبي زيد القيرواني أثناء تدريسه للطلاب ما فتئ يدعوهم إلى "التمسك بالأخلاق الفاضلة وترغيب الناس فيها، مما يجعل للطالب سمة العلماء واجتهاد الفقهاء، وأخلاق العارفين، وذلك في ربط العلم بالعمل " قال ابن أبي زيد: لتلاميذه إن الله يسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، فأمنوا بالله، بألسنة ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم رسله وكتبه عاملين"(٢١).

فرتب العلم قبل العمل بما هو وسيلة إليه، وذلك أن الله لا يعبد عن جهل، فكان العلم عنده وفي منهجه مقدم على العمل، إذ لا خير في علم لا يصاحبه عمل، ولا يقبل الله علما ولا عملا بلا إخلاص.

وخلاصة الأمر فإن ابن أبي زيد القيرواني كانت له مجموعة من المشابهة بالإمام مالك من حيث سمته ومنهجه وأخلاقه وعقيدته ودعوته إلى العلم القبل العمل، وضرورة اقران العلم بالعمل، ووجوب التمسك بالسنة والنفور من البدع، وعلى الجملة فهو مالك الصغير كما لقب.

(٢١) رسالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" إعداد محي الدين سليمان إمام مديلي: ٢٢٠- ٢٢١.

المسألة الثانية: جهوده في خدمة المذهب المالكي تحقيقاً وتأصيلاً

أولاً: أثر كتاب الرسالة في خدمة المذهب

ومن جهود ابن أبي زيد في خدمة المذهب المالكي وتوسيع آفاقه، ما حظي به كتاب الرسالة من عناية وحسن ترحيب في أصقاع الدنيا من طرف علماء كبار في المشرق والمغرب، كالقاضي عبد الوهاب البغدادي إمام المالكية في العراق، والإمام الأبهري أحد أعمدة المذهب في المشرق اللذين احتفيا بالرسالة أيما احتفاء وعرفا بها بين الناس وطلابهما.

يقول الدكتور عمر الجيدي: "يعتبر كتاب الرسالة من أهم ما ألف في المذهب المالكي (..) بعد الموطأ والمدونة، وقد رزق من القبول والانتشار، وعناية الناس به، وتأثرهم به، ما لم يحظ به أي مؤلف غيره، ولا يضاهيه في هذه المنزلة والحظوة إلا الموطأ والمدونة، فقد عظم شأن رسالة ابن أبي زيد القيرواني هذه، وجَلَّ بالنفع والبركة والقبول مكانها، (..) فاشتهرت اشتهار النهار وشاعت في جميع الأقطار وتلقاها الناس بالقبول في جميع الأعصار"(٢٢).

فالنص يظهر قيمة الرسالة لابن أبي زيد، وإقبال الناس عليها وانتشارها في العالم كله، ولعل أعظم شهرة لها وأكبر جهد لها في خدمة المذهب وإثراء لفقهه أن ذكرت إلى جانب الأمهات من مصادر المذهب المالكي، بل إلى جانب الموطأ عمدة المذهب وقطب رحاه، ومبدأ تأسيسه.

(٢٢) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٣

وبهذا تكون الرسالة قد قدمت خدمة جليلة للإسلام والمسلمين في فهم الوحي كتابا وسنة، على قواعد وأصول مذهب مالك، فكانت من أهم الجهود في خدمته والتعريف به ونشره في مختلف الأقطار، وبهذا يتأكد أثر ابن أبي زيد في خدمة المذهب وإغناء أصوله وتجديد فروعه، "وتحسين ترتيبها وتبويبها"(٢٣)، حسب الفروع الفقهية.

وقبل أن أختم هذه النقطة بقيت مسألتان لهما أثر بالغ في خدمة المذهب، لهما ارتباط بما سبق.

أولا: عناية العلماء في المشرق والمغرب والأندلس بمؤلفات ابن أبي زيد خاصة الرسالة، هذا إذا علمنا أن فحول المذهب المالكي وكبار أعلامه هم من اهتم بهذا المؤلف، بل وأعجبوا به، وما ذلك إلا لما تضمنته من غزير الفقه المالكي وأصوله وقوة استيعابها لفروعه وفتاوى علمائه.

"فلما ألف ابن أبي زيد الرسالة، أرسل منها نسخة إلى عالم قرطبة، وأخرى إلى أبي بكر الأبهري، فأعجب بها، وعرفها لأصحابه كما عرف بصاحبها، وأمر بنسخها حتى قيل إن إحدى نسخها كتبت بماء الذهب، وبيع أصلها بمائتي دينار، وقيل بوزنها ذهبا، في حلقة أبي بكر الأبهري".

قال الدكتور عمر الجيدي: "وكان ذلك من الأسباب التي دفعت العلماء إلى أن يتسابقوا إلى اقتنائها، خاصة الجلة منهم، فيحكي بن ناجي أنه لما أتم تأليفها؛ كتب منها نسختين بعث بواحدة إلى الشيخ الأبهري؛ كبير فقهاء المالكية في بغداد، فأبدا إعجابه بها، ولم يتمالك من فرط الإعجاب، أن أثنى على صاحبها، وأشاع خبرها بين الناس، وعرف

(٢٣) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٥

بمؤلفها، وأمر ببيعها، فبيعت بمائتي دينار، ولكنه لم يرض إلا بأن تباع بوزنها ذهبا، كما بعث بالثانية إلى أبي بكر ابن زرب القرطبي"(٢٤).

كما أقدم على شرحها وتدريسها كبار العلماء في عصر المؤلف وبعده، إضافة إلى أنها "من حيث الشكل فقد صاغ المؤلف محتور الرسالة ومضمونها من مسائل العقيدة والفقه؛ في قالب جذاب؛ من وضوح العبارة؛ وسلاسة الأسلوب؛ وروعة البيان؛ جعلها محل قَبُولٍ وإقبال؛ ويسر فهمها وتحصيلها؛ لكل من له إلمام بالقواعد العربية والمبادئ الفقهية"(٢٥)، فهذا المميزات البارعة جعلت هذا الكتاب محطة اهتمام، وحظوة لدى كل المهتمين.

"وهكذا كانت الرسالة وما تزال، موضع العناية والتقدير، فاهتموا كثيرا بقراءتها وشرحها والتعليق عليها قديما وحديثا(..) فجاء شرحها في مجلدات، ومنهم من أوجز الكلام عليها(..) فجاءت تعليقات ذات أهمية نافعة، وبذكر أن شروحها زادت عن مائة شرح"(٢٦). ذكر منها عمر الجيدي تسعة وخمسين شرحا(٢٧).

المسألة الثانية: انتشار مؤلفاته عبر العالم الإسلامي وغيره بواسطة طلابه ومن تتلمذ على يديه، أو بواسطة مراسلة إلى الشيوخ من أقرانه ومعاصره كما فعل في الرسالة، مما زاد المذهب شهرةً وتعريفًا وانتشاراً.

يقول الأستاذ أحمد سحنون "لم يقف انتشار الرسالة عند حدود العالم الاسلامي على اتساع أرجائه، وتعدد أقطاره بل عبر إلى ما وراء الآفاق، فكانت من ذخائر تراثنا الفقهي

(٢٤) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٥.
(٢٥) الرسالة لابن أبي زيد: ٦.
(٢٦) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ١٩٥.
(٢٧) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: من: ص١٩٦ إلى ٢٠٠

الذي عني به المستشرقون، وحرصوا على ترجمته ودراسته"(٢٨). فترجمت إلى الفرنسية والانجليزية وغيرها(٢٩).

كما يمكن اعتبارها ضمن ما اعتمد عليه من الفقه المالكي في صياغة القوانين الوضعية في أوروبا خاصة فقه المعاملات المالية في البيوع وغيرها، على غرار كتاب القوانين الفقهية لابن جزئ الغرناطي ومنظومة الشيخ خليل المعتمدة في القانون الفرنسي بشكل حرفي دون احالة للأسف الشديد(٣٠).

ثانيا: أثر كتاب "النوادر والزيادات" في تأصيل المذهب.

ويمكن الحديث عن كتاب "النوادر" ومدى مساهمته في إثراء الفقه المالكي وخدمة المذهب، وأهم ما تضمنه، من خلال مجموعة من المصادر التي تحدثت عنه،

لقد أثْرَ ابن أبي زيد المذهب المالكي من خلال هذا الكتاب فقهاً وأصولا، بما لا يدع مجالاً للشك، فكان حقا أحق بلقب مالك الصغير، ومجدد المذهب في الغرب الاسلامي بدون منازع، وذلك بما استفاده من شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، ومن "أمات مصادر المذهب، من الموطأ والمدونة والواضحة...وغيرها، فيما حصل بين يديه"(٣١).

(٢٨) ينظر: رسالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" إعداد محي الدين سليمان إمام مديلي.

(٢٩) ينظر: من أعلام المذهب المالكي

(٣٠) ينظر كتاب: حضارة العرب، للمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون، بل ذهب كثير من فقهاء القانون الكبار أن الفقه المالكي يشكل قرابة تسعة أعشار القانون الفرنسي، كما ورد في مقال على شبكة الأنترنيت: https://www.noonpost.com/content/22370.

(٣١) ينظر: رسالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" إعداد محي الدين سليمان إمام مديلي.

قال ابن خلدون "وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية، ثم اختصر بن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر"(٣٢)، فعمل على إحياء مصادر المذهب وربط فروعه بأصوله.

كما عمل على ربط حاضره بماضيهم، وتجديده فيما بين يديه وذلك "أن الجديد هو قتل القديم بحثا" كما يقال، وهو ما فعله ابن أبي زيد في منهجه وتجديده، واستنباطه واجتهاده، "فكتاب النوادر اشتمل على جميع أقوال المذاهب وفرغ فيه الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمها في كتابه على المدونة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفاقين، إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك"(٣٣).

يقول أحد الباحثين: " إن المطلع على كتاب النوادر(...) يجد مدى استفادة ابن أبي زيد من أمهات الكتب في المذهب المالكي، سواء ما ألف فيها في المشرق أو ما دون في المغرب والأندلس. خاصة كتب الأسدية (...) والمدونة (...) والواضحة (...) وغيرها، مضيفا إلى هذا كله آراء من سبقه، من الأئمة والفقهاء (...) وكتاب النوادر جمع فيه (...) ما في الأمهات من المسائل والخلافات في الفقه المالكي، ورتبه، وبوبه، ولمَ فيه شتات الآراء، وما تفرق من أقوال العلماء، من خلال مؤلفاتهم التي وصلته(بلغته) كتابة، أو مشافهة من شيوخه الذين أخذ عنهم"(٣٤).

---

(٣٢) المقدمة: ٤٥٨.
(٣٣) المقدمة: ٤٥٩.
(٣٤) ينظر: رسالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" إعداد محي الدين سليمان إمام مديلي.

ولعل في هذا المنهج يتضح بشكل جلي مدى جهوده وخدمته للتراث الفقهي داخل المذهب المالكي، أضف إلى ذلك أن كتاب " النوادر" ضم تأصيل الفروع الفقهية ومقارنتها بفروع المذاهب الأخرى، فهو كتاب الفقه المقارن إضافة إلى ما سبق من تصنيفه وترتيبه للفروع.

وخلاصة الكلام: فإن كتاب" النوادر" قصد به صاحبه تهذيب المذهب المالكي مما علق به، مما ليس منه وما لم يُخَرَّجْ على أصوله وقواعده، ويظهر هذا في تمسك ابن أبي زيد بصفاء العقيدة بعيدا عن الجدل الكلامي كما كان عند مالك وغيره من الأئمة والصحابة والتابعين.

وكذا مجابهته للبدع المستحدثة المستحدثة عبر ادعاء كرامات لا علاقة لها بالكرامات وإنما هي "أكل أموال الناس بالباطل حتى شاع من بعضهم أنه ينكر الكرامات، فرد عليهم برسالة موسومة "بكرامات الأولياء"، وأخرى في الرد على القدرية(٣٥)، إثباتا العقيدة السنية.

النقطة الأخير في هذا المحور، عبارة عن خلاصات وهي الخروج بأهم الخلاصات التي تبرز جهود ابن أبي زيد في خدمة المذهب المالكي:

- إثراء الفقه المالكي، وإحياء تراثه، باستفادته من كتب مَنْ سبقه من العلماء، وتسجيل ما جد من آراء أئمة المذهب وأقوال الفقهاء.

"كان ابن أبي زيد يتعامل مع هذه الآراء تعامل الفقيه العالم المرجع، بهدف إكمال نواقص من سبقه من العلماء، وتنقية الفقه المالكي من اضطراب الأقوال، وتعارض

(٣٥) ينظر: هذين الكتابين في تراجم الإمام ابن أبي زيد المشار إليها أعلاه

الآراء"(٣٦)، الانتصار لأصول المذهب وقواعده العامة ومصادره التشريعية، خاصة في كتابه الذب عن المذهب، والاقتداء بأهل المدينة.

يعتبر منهج ابن أبي زيد في التدريس والتأليف، وكثرة الطلبة من أقطار مختلفة، ومراسلته كبار أعلام المذهب المالكي في المشرق والمغرب والأندلس، يعتبر ذلك كله من أهم ما أكسب المذهب شهرة وقوة وانتشارا في آفاق الدنيا شرقا وغربا.

ولعل سلامة منهج هذا العالم النحرير، قولا وعملا واعتقادا، وقوة حجته ودليله، والالحاح على ربط العلم بالعمل والإخلاص، كل ذلك أكسبه تلاميذ كثر نجباء أذكياء، نشروا عمله وقواعد مذهبه، ونافحوا عن أصوله ومصادره بما استصحبوا من منهج شيخهم مالك الصغير.

فكانت جهوده في خدمة المذهب بما أفردها للدفاع عن المذهب من كتب، كما تبرز جهوده في خدمة المذهب بكثرة مؤلفاته وانتشارها، وجودة تأليفها، واقبال الناس عليها مدارسةً، وتدريسًا وشرحها واستنباط أدلتها، والتدليل على مسائلها.

فحق فيه بكل صدق قول الإمام الحجوي الثعالبي: "ابن أبي زيد القيرواني أحق من يصدق عليه حديث" إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة، أمر دينها(٣٧).

---

(٣٦) ينظر: رسالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" إعداد محي الدين سليمان إمام مديلي.

(٣٧) ينظر الفكر السامي: ٢/ ١٤١.

خاتمة

الحاصــل: أن ابن أبي زيد القيرواني قدم خدمة جليلة للفقه والمذهب المالكي على عدة نواحي تأصـيلاً لمسـائله الفقهية بربطها بأقوال الإمام مالك من مصـادرها، وأقوال تلاميذه الذين نقلوا مذهبه بشكل مباشر، وكان هذا صنيعه في كتاب "النوادر والزيادات".

كم عمل على تأصيل مسائل المذهب المالكي حيث ربطها بالأصول المتفق عليها؛ من الكتاب والسـنة والاجماع والقياس والمتفق عليه من الأصـول عند المالكية كما هو ماثلٌ في كتابه "اختصار المدونة والمختلطة"، كما بيناه آنفًا.

كما كان دفاعه عن المذهب بكل اسـتماتة والدب عن أصــوله والاحتجاج لها كما في كتابه: "الدب عن مذهب مالك" وكتاب "الاقتداء بأهل المدينة" في بيان صــحة أصــول مـذهب مالك خاصــة عمل أهل المدينة؛ الذي يعتبر مركزي في الفقه المالكي وعمدة من أعمدة أصـوله، كما أسـهم في تقريب المذهب المالكي وتبسيط مسائله وجعلها في متناول الناشئة والمتعلمين من خلال كتابه: "الرسالة في المذهب المالكي"، زيادة عن الدفاع عن عقيـدة إمـام المـذهـب مالك بن أنس، كما هو ظاهر بشــكل جلي في غرة كتاب الرســالة خاصة، وغيرها من الكتب.

المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم
- ✓ اختصـــار المدونة والمختلطة للإمام أبي محمد ابن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني، تحقيق: الأستاذ أحمد بن عبد الكريم نجيب، دار الجيل الدار البيضـاء المملكة المغربية، الطبعة الأولى: ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٤م.
- ✓ حضـارة العرب، للمؤرخ الفرنسـي غوسـتاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسـة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٣م.
- ✓ الذبّ عن مذهب مالك للإمام محمد بن أبي زيد القيرواني، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، تحقيق: الدكتور محمد العلمي، الطبعة الأولى؛ ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- ✓ رســـالة دكتوراه "ابن أبي زيد القيرواني عقيدته ومواقفه من الفرق ومقاومته للبدع" للدكتور محي الدين سليمان إمام مديلي.
- ✓ الفكر الســامي في تاريخ الفقه الإسـلامي للإمام محمد بن الحســن بن العربيّ الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي (ت: ١٣٧٦هـــ)، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ✓ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي للعلامة عمر الجيدي، منشورات عكاظ المغرب الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ
- ✓ مسالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة في الفقه المالكي للإمام ابن أبي زيد القيرواني، تـأليف العلامة أحمد بن الصـــديق الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية: ٢٠٠٦م.
- ✓ مقدمة "الرســالة" لابن أبي زيد القيرواني منشـــورات وزارة الأوقاف والشـــؤون الإسلامية المملكة المغربية.

- المقدمة المســـمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصـــرهم من ذوي الشأن الأكبر، للإمام عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)، تحقيق: الأستاذ خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الموافقات، للإمام إبراهيم بن موســـى بن محمد اللخمي الغرناطي الشـــهير بالشـــاطبي (ت: ٧٩٠هـــ)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م
- النوادر والزيـادات على مـا في المـدونـة من غيرهـا من الأمهـات، عبـد الله بن عبـد الرحمن لأبي زيد القيرواني، دار الغرب الإسلامي، طبعة ٢٠٠٦م.

المحتويات